الانتقال من جُحر إلى جُحر - أفضل

ويعود فريد هنيدى بذاكرته إلى حالة الاشتباك النفسى التى تورط فيها مع شخصية السادات، فهل هو المناضل الوطنى الذى لا يمكنه إلا أن يحبه، أم هو المتآمر السياسى الذى لا يمكنه إلا أن يكرهه؟ ثم تذكر كيف انتهى به الحال إلى اتخاذ جانب الكراهية لهذا الرجل بسبب صعود رجل آخر نما فى معيته هو السيد النحال.

فعندما عاد فتيان فتيان من حفل الزفاف البهيج الذى زفت فيه البنت التى كان يحبها طاهر زين الدين إلى السيد النحال قال للناس إن مندوب رئاسة الجمهورية الذى حضر الفرح كان يجلس بجواره شخص يشبه أنور السادات. ولم يحفل فريد هنيدى بهذه الملاحظة الساذجة.. لكنه بدأ فى الالتفات إلى قيمة هذا القول عندما بدأ اسم السيد النحال فى الظهور على صفحات الصحف كناشط سياسى فى الاتحاد الاشتراكى فى أول عهد السادات، ورغم أن هذا الظهور لم يكن سوى امتداد لواقع الحال الذى كان عليه ابن النحال فى أخريات عهد عبد الناصر إلا أن كثافة الأضواء حوله بدت أكثر تركيزًا وتميزًا..

وقد ظن أهل البلد أن طموح ابن بلدهم جرفه بعيدًا عنهم فنسى البلد عندما ذهب بعيدًا يبحث عن نفسه، ثم نساها عندما وجد نفسه. لكنهم سرعان ما انتبهوا إلى إشارة تحمل دلالات عودة منتظرة للسيد النحال، لكنها عودة مذهلة وثرية، فقد جاءهم من يقول:

ـ «هل تعرفون القصر المهجور الذى يقف وحيدًا عند حدائق الملك..؟ .. لقد فتحوا بوابته الرئيسية، وبدأوا فى ترميمه وتجديده وإعادة الحياة إلى حديقته.»

ـ «وما الذى ذكّرهم به بعد عشرين عامًا من الثورة..؟»

ـ «السيد النحال» اشتراه لنفسه من الحراسة.. وسيتخذه سكنًا له.»

ـ «وما الذى ذكّره بنا بعد عشر سنوات من الغياب هذا السيد النحال؟»

ـ «يبدو أنه قرر أن يعود إلى بلده»

وبالرغم أنه لم يأتهم من يؤكد الخبر أو ينفيه، فقد كان هذا الحديث عن تألق المعمار فى القصر يومًا بعد يوم وشهرًا بعد شهر يقترن بحديث عن صاحبه الغائب فيتناقلون آخر أخبار السيد النحال..

وبعد سنوات قليلة لم يكد يهدأ فيها الحديث عن القصر حتى علا مرة ثانية عندما كتبت الصحف خبرًا عن تقدم النحال لانتخابات البرلمان نائبًا عن دائرة البلد. ودار لغط كثير، وسرت بين العباد همهمة..

ـ «السيد النحال؟ سبحان مغير الأحوال»

ولم يصدق عبد الجليل أبو سنة نائب الدائرة العتيد، وصاحب المجد التليد.. الوقور، الغيور، صاحب العز الموفور، أنهم يجهزون شابًا تحيطه الأقاويل للهبوط على مملكته الآيلة إليه بالوراثة أبًا عن جد.. ثم لم يصدق عبد الجليل أبو سنة أن إجراءات التجهيز امتدت وكشفت عن نفسها عندما أُعلن أن السيد المحافظ سيكون فى استقبال السيد وزير الصناعة وبرفقته الأستاذ السيد النحال مرشح الدائرة ليقوموا بوضع حجر الأساس لمصنع السكر الجديد.. ثم أخذه الذهول وهو يحاول إحاطة القصر الكبير ذى الحديقة الممتدة بنظرة واحدة.

ـ «أكل هذا القصر له..؟»

ـ «ليس بأكبر من قصر قالوا إنه أقام عرسه فى جزء من حديقته بالقاهرة؟»

ـ «ومن أين؟..»

ـ «من عند الله..»

ثم قال له صديقه وهو يحاوره:

ـ «الأيام دُول يا عبد الجليل.. أبوه كلاف بهائم.. وأخته هربت مع إسكافى متجول وتزوجته، وأخوه الأكبر مات متأثرًا بخبطة على رأسه من مسجل خطر.. وإخوته الثلاث

بالكاد خرجوا من إصلاحية الأحداث العام الماضى، وكلها أحداث فى حياة أسرته لا يعلم عنها شيئًا.. مثلما لا يعلم شيئًا عن قصره الجديد..»

ـ «أو لم يره؟..»

ـ «لا يملك الوقت لذلك، فهو يسافر للتجارة، ويمعن فى إثبات الشطارة.»

ـ «تلك مؤهلات الساسة الجدد.. الأصالة تدوسها البهائم.. سيحاكمنا التاريخ إن لم نتصدى لهم..»

ـ «يبدو أن السيوف ياعبد الجليل لن توقف سيل البهائم المنهمر»

* * *

وقالوا إن السيد النحال خطب فى الناس فى حفل وضع حجر الأساس لمصنع السكر، وقال لهم إنه نشأ فى هذا البلد بسيطًا فقيرًا ينحدر من ظهر عامل بسيط، لكنه فى عز فقره كان يراقب ما يقوم به جمال عبد الناصر من محاولة لتذويب الفوارق بين الطبقات وبناء المجتمع الاشتراكى.. وقد مات جمال عبد الناصر قبل أن يكتمل البناء والدليل:

ـ «ما أراه أمامى الآن من أناس سمان يحتلون المقاعد المخملية فى الصفوف الأولى، وأناس يبدو عليهم التعب يجلسون أو يقفون على كراسٍ خشبية فى الصفوف الخلفية».

وقالوا إن السيد النحال ملك ناصية الحفل، وألهب أكف الناس بالتصفيق، عندما أتى بملاحظة الكراسى الوثيرة والمقاعد الخشبية، وعندما أقسم على محاربة هذا الزيف وهذه التفرقه فى ظل القائد المؤمن أنور السادات، وعندما رفع صوته عاليًا وهو ينطق اسم الرئيس طلبًا لموجة أخرى من التصفيق نالها على الفور.

أما ما قاله السيد وزير الصناعة، فقد أشاد فى كلمته بالمرشح العصامى السيد النحال الذى انتزع هذا المصنع من فم الأسود ليقيمه هنا لأبناء بلده.. لأنه رجل يملك حصافة رجال الاقتصاد، وحنكة أهل السياسة، ونيل أولاد البلد.

وأما ما قاله فريد هنيدى تعليقًا على كل ذلك فقد كان قريبًا مما قاله النائب الشهير عبد الجليل أبو سنة، ولكنه أكد أن سيل البهائم المنهمر والآخذ فى دهس القيم لن توقفه السيوف ليس هناك سوى ذبح دليلهم الراكض أمامهم حتى يتوه القطيع الضال.

ونقلًا عن راضى هنيدى إلى أخيه فريد جاء وصف اللقاء الصاخب الذى افتتح به السيد النحال قصره الجديد على مشارف حدائق الملك فى أطراف المدينة.

فقد فضّل السيد النحال أن يودع السيد وزير الصناعة على باب مبنى المحافظة ولا يسافر معه إلى القاهرة التى جاءا منها معًا رغبة منه فى لقاء أبناء دائرته.

بدأ فذبح ثلاثة عجول سمان وزع لحمها على الفقراء.. ثم راح يستقبل الناس فى الصالون الفسيح ذى الأعمدة الدائرية التى تحمل السقف فوق تيجانها المذهبة، وكان ضحوكًا ولذيذًا ينادى على ضيوفه بأسمائهم، فقد قال لفتيان فتيان:

ـ **«كيف حالك يا فتيان..؟ وكيف حال الأرانب والبهائم؟..»**

فقال فتيان: **«تركنا البهائم للبهائم، وعملت بالتجارة عملًا بنصيحتك يا أستاذ سيد».**

ـ **«أىّ تجارة.»**

ـ **«تجارة الموبيليا.»**

ثم التفت فتيان فتيان إلى الجمع الذى خلفه وراح يشرح لهم:

ـ **«والله ياجماعة لم أكن أعلم شيئًا عن مسألة تدوير رأس المال هذه.. إلى أن أفهمنى السيد باشا أن رأس المال يدور فى الموبليا بسم الله ما شاء الله ٦ مرات فى السنة. فتركت البهائم التى لا تدور إلا فى الساقية»**

ضجت الصالة بالضحك فشاركهم فيه النحال متخذًا سمت التواضع إلى أن تحدث رجل ما:

ـ **«السيد وزير الصناعه قال عن السيد باشا إنه يجمع بين حصافة رجل الاقتصاد وحنكة رجل السياسة ونبل أولاد البلد.. فلم التعجب يا سيد فتيان؟»**

عرفه النحال من صوته.. وراح يتأمله بعمق، ثم ناداه:

ـ **«من؟.. فاروق ابن العمدة.. كيف حالك يا فاروق؟.. أين الكلب؟»**

وقف فاروق الضخم الطويل وهو يبتسم:

ـ **«الكلب مات»**

فضجت الصالة مرة أخرى بالضحك، وسرح السيد النحال وهو يتذكر كلمة مماثلة

قالها حشمت بركات عن عبد الناصر بعد رحيله..

ووسط زحام الصالة استطاع السيد النحال التعرف على راضى هنيدى، فناداه باسمه وسأله عن الأستاذ فريد ومحمود ثم عرّج على حادث الجمل الذى أكل ذراع البطل، وتساءل إن كانت هذه الواقعة جعلتهم يقلعون عن تربية الجمال، وقد ظهر للناس أن راضى الخلوق بدا مستاء لا يبادله المرح، إلى أن شاهد ابن النحال جوهر البقال فناداه هو الآخر باسمه، فوقف الرجل وراح يجيب عن أسئلة مضيفهم الكبير:

ـ «الجرن الذى أمام المدرسة هل مازال خاليًا أم عمرّوه بالمبانى؟»

ـ «مازال خاليًا..»

ـ «جميل.. بعد أسبوع سأنزل البلد لعمل مهرجان بها.. سأكلفك بإقامة سرادق كبير يكون جاهزًا قبل وصولى..»

ـ «ولكنى علمت أن عبد الجليل بك أبو سنة سيقيم سرادقًا هناك فى القريب»

ـ «إذن، يجب أن نقيم سرداقنا اليوم.. يا سنّى.. ياكيمو.. يا بُق.. يا سردينة.. ياكلّه.. تعالوا»

وعلى غير انتظار هبت عاصفة من الضحك عندما تقدم إليه خمسة رجال اتضح أنهم أصحاب هذه الأسماء.. وكأن السيد النحال انتبه هو الآخر إلى غرابة أسماء رجاله، فأرسل ضحكة مفاجئة جعلت الحضور يعاودون الضحك معه، ثم توقفوا وهو يصدر أوامره إلى هؤلاء الرجال:

ـ «ستذهبون مع عم جوهر إلى البلد لإقامة سرداق فى المكان الذى يحدده لكم.. إذا جاءكم أحد من طرف عبد الجليل أبو سنة لمنعكم فتصرفوا معه..»

وشاهد الحضور رجلًا من الخمسة يخاطب مرشح الدائرة بلسان ثقيل وصوت خشن:

ـ «لو حضر أحد منهم يافندم سنذهب به إلى جهنم ونتركه هناك»

ـ «إذن، لا تتأخروا»

وعادت موجة الضحك مرة أخرى.. فهم يفهم الحاضرون هل التعليمات هى ألا يتأخروا فى البلد أم لا يتأخروا فى جهنم..

وقال راضي هنيدى لأخيه فريد:

ـ «والله ياأخى إنها جلسة كانت مليئة بقلة القيمة والهزل والاستخفاف بالناس»

وقال فريد:

ـ «جلسه قوامها حيوان يسأل عن باقى الحيوانات.. أرانب وبهائم فتيان.. وكلب قاروق.. وجمل أولاد هنيدى.. ما الذى تتوقعونه من سافل فى طريقه لاعتلاء كرسى البرلمان»

وكان لمحمود رأى مخالف: «يا جماعة يوم الهنا أن تنجب بلدنا عضوًا بالبرلمان.. الرجل أعجب الناس وأذهلهم بجرأته.. فهل عبد الجليل أبو سنة يجرؤ على انتقاد جلوس المأمور والحكمدار ورئيس المحكمة على كرسى صالون فى الأمام والناس على كراسى خشب فى الخلف؟»

فسأله فريد: «هل هذا كل ماأعجبك فى ابن النحال يامحمود؟»

ـ «إنها إشارة إلى الناس تقول إنه يملك القدرة على مهاجمة الحكومة. ومحاربة الزيف والتفرقة»

وصمت فريد هنيدى وقد لاحت على شفتيه ابتسامة مريرة، ثم قال لأخيه:

ـ «هل عرفت أن السيد النحال أخذ أمه وأباه وإخوته ليعيشوا عنده فى قصره الجديد..؟»

فهتف محمود: «أرأيت؟.. ألم أقل لكم إنه.....»

فقاطعه فريد: «لكنه ألقى بهم فى الإسطبل الذى يقع فى الحديقة الخلفية بالقصر»

وقال راضى: «فعلًا.. أنا سمعت بهذا الأمر.. يسكنون فى قسم الخدم بالحوش الخلفى هناك يعنى عباس النحال انتقل من إسطبل إلى إسطبل.. وولده الذى يعترض على الكراسى الخشبية يغلق القصر الفسيح على نفسه و دون أهله، اذهب هناك لترى بنفسك»

فقال فريد هنيدى ساخرًا:

ـ «يعنى من جحر ياعباس إلى جحر أفضل.. هذا هو ابنك البار».